« نسف للارض » (ص ٣٤٩) · ثم يتساءل : « كيف ننجز عملية الالتقاء بمشروع يؤسس علميا على الرغبة ؟ » (ص ٣٥٠) · وهذه « العملية » قد طرحها من قبل في السؤال المتصل بالتقنية وبشيطانيتها ·

لكي نقيس الفانطازيا الاستشراقية ، علينا ان نقرأ النص الغريب للمناظرة التي عقدت سنة ١٩٦٠ بين بيرك وماسينيون ، تحت الرئاسة « المقدسة » لمجلة الفكر Esprit (اكتوبر ١٩٦٠) · صحيح ان تدخل ج·م دومينياك (مدير المجلة انذاك) يزيد من ضبابية الرؤية ، فهو مثلا يتساءل عما اذا كان العرب قادرين ، فعلا ، على ان يصنعوا انفسهم، أو أن ينتجوا افكارا مثل فكر مونيي وشاردان · ثم ينتهي بالكشف عن جرأته الروحية صارخا : « لكن الا تجدون ما يبعث القلق ، في كون جميع هذه الاسئلة التي تطرح على العالم العربي ، نحن الذين نطرحها وليس العرب انفسهم ؟ » ·

أما أنا ، فلا أجد ذلك مقلقا البتة ، لان الاسئلة التي تطرحها على نفسك يا سيد دومينياك لا تقول شيئا سوى أحكامك المسبقة : وعليك ان تعيد قراءة ما كتبته كلمة كلمة لتتأكد من ذلك · أما فيما يتعلق بمونيي وشاردان ، فاننا نؤثر الجدية ، لذلك نوفر على العالم العربي الحديث عنهما ، ونتابع تحليلنا لكتاب جاك بيرك ·

ان بلاغة بيرك الابوية المتصنعة ، المتعجرفة ، تلح على ما يسميه التوتر بين المقدس والتاريخي : فهل يعرف مجتمعا او مرحلة تاريخية لم يكن فيهما هذا التوتر فاعلا ؟ ان خاصة الكائن ، أن يتحول في ترابط بين الآلهة وبشر والاشياء · صحيح ان هذا الترابط يمكن ان يمس ، قليلا او كثيرا ، الكلام ، ولكن السؤال الاساسي يظل هو نفسه · ومن ثم فان الجدال يصبح عقيما في حد ذاته عندما يدعو بيرك العرب الى الحفاظ على هويتهم مع اكتساب التقنية : « ما يمكن ان نفعله ، هو أن نعيد ، فيما هو أبعد من التقنية ، اقرار القيم ، لكن من خلال وبوساطة التقنية ، واعتقد ، غريزيا او بوعي ، أن العرب ، مثلنا ، يطمحون الى فعل الشيء نفسه » · ان هذا « الابعد » (au-dela) هو بالضبط ما يستعصي على التسمية ، ان التقنية ليست مجرد عبور بالنسبة للانسانوية انها تحمل مصير الميتافيزيقا ·

تقابل هذه البلاغة المتصنعة ، الاخزويات الكريمة لماسينيون · وكعادة هذا الاخير ، فانه لا يستوحي سوى رأسه ، فهو يتحدث عن قوانين الضيافة ، وحق الالتجاء ، والسجن «الذي يؤدي الى الحرية التي سيدرك العرب امتلاءها بواسطة هذا الطريق نفسه » ·

لقد جرت هذه المناظرة والحرب الجزائرية في اوجها · وهكذا كان يرى ماسينيون ، ان اهانة المضطهدين والمعذبين ستنقذ الابراهيمية وستنقذ معنى المحنة المسيحية · وبما ان المناظرة لم تمتد ، فان ماسينيون وجد حلا لانهائها ·

اقرأوا جيدا هذا اللحن الثنائي ·

بيرك : ــ « ولاجل ذلك ، هناك في العمق ، قليل من الاختلاف بين مواقفك وبين مواقفي» ·

ماسينيون ــ « نحن الاثنان ننتمي الى الكوليج دو فرانس ، وهذا يكفي » ·

اننا لم نورد هنا هذا الحديث ــ الطرفة ، الا لنوضح الى اي حد يمكن ان تأخذ الانسانوية الاستشراقية طابع الثرثرة ·